

قضايا الأدب والأدباء

لماذا اتهم ثقافتنا المعاصرة ؟

بقلم : محيي الدين اسماعيل

لماذا اتهم ثقافتنا المعاصرة ؟

سؤال لا بد أن اجيب عنه ، وأن اتلو بعض ما في صحيفة الاتهام . لقد عاشت ثقافتنا المعاصرة هذه العقود من السنين الفائتة في تبعية وخنوع ، ومثلت دورا مخادعا بحماس مفتعل ، ذليلا ولكن بادعاء . نقلت اشكالا وانماطا من الصور المتناقضة المتضادة ، ولكن جميعها كانت دون مستوى تاريخنا ، ودون مستوى اشواق الانسان العادي فينا وآماله واحلامه ، ودون أن تهيه شيئا مذكورا ، وبذلك عجزت عن اداء اهم رسالة لها ، واعني بها أن ترفع معنى الوجود في حياتنا ، وأن تلهب محفزات التعبير من هذا المعنى . ان تجعلنا ، على الدوام ، طليعة تاريخ المستقبل .

كانت ثقافتنا المعاصرة ، بالرغم من كل ما تنطوي عليه من نقائص مركبات النقص ، مرحلة فيها عنصر الضرورة ، ولكن كان لا بد لها ان تنتهي وتقهروا وتخلي السبيل لمستوى روحي ارفع ، بعد ان اثبتت سقوطها فادانت نفسها ، من خلال التهريج والضجيج والعجز عن العطاء والهزيمة والعقم . كان لا بد لها ان تنتهي بانتهاء مهرجاناتها النزقة الثرثرة ، التي مثلت فيها دور المهرج الابله ، فقدمت اعمق احساس بالذنب لجميع الصادقين مع انفسهم ومع تاريخهم ومع العالم ، ولكل روح ووع يحاول أن يرتفع فوق غثاثة الالفاظ الفارغة المنفرة الخلو من اي تسال حقيقي عن المعاني الكبرى .

ان المثقف العربي ، اديبا ومفكرا ، لم يبحث ، حتى في قمة عهود التوتور والمحن والالام ، عن نفسه وعن تاريخه ، بقدر ما كان يبحث عن كل ما هو ضد نفسه وضد تاريخه . لقد عاش يوما وراء الحواجز والسدود التي تفصل بين نفسه ونفسه ، وبين نفسه وتاريخه . لقد عاش كل مأساة مركبات النقص ، وكل مأساة التناقض بأحد اشكالها واعتنفها . وهكذا عجزت هذه الثقافة ، بكل صورها ، ان تأخذ تلك الصورة السقراطية الجليلة ، صورة الحياة الحية حقا في السوق دون ان تتبدل ، صورة الامتداد الى الارض والامتداد نحو النور . انها لم تستطع ان تعيش في نفوس الناس ، بل على العكس من ذلك ، بدأت من خلال تناقضاتها مع الواقع تعزل الواقع والتاريخ باصرار وعناد ، وترتد الى الظلمة وتنسحب من السوق اطلاقا ، حتى بدأتنا نحس رويدا رويدا بتقهقر مربع في صورة عليا من صور الثقافة ، وتعني به الادب . فشهدنا في الآونة الاخيرة ، ان الكثير من ادبائنا لم يعد يكتب للناس ، بل لبعضه بعضا ، ودون أن تكون بين الجميع صيغة واحدة للتفاهم . وان جميع ادبائنا لم يستطيعوا بعد استفحال تناقضاتهم ، مع الواقع والتاريخ ، ان يخلقوا نموذجا واحدا يقدم لنا معنى العضلات التسيبيحيها الانسان العادي ، الانسان البسيط ، في عالمنا نحن .

لقد خلق ادباؤنا نماذج وانماطا عدة ، ولكنها جميعا كانت مدلسة ، قدموها من خلال تملق الصغار الصدر عن مركبات النقص ، ومن غير تشوف وتلهف للمصدر ينبوع الاصيل . وحتى اولئك ممن القلة القليلة النادرة الواعدة التي وشمت مطلع هذه الحركة قبل أن تجترح اثم الزيف الاكبر ، وتمصر عليه ، قد فقدت اصالتها وارتدت اخيرا ، ففقدت هي الاخرى توازنها على الارض التي هي فيها ، لانها فقدت روح الفاعلة والفتح والكشف عن آفاق المصير . ومن هنا ولاول مرة في تاريخنا ، لم يعد ادبنا تاريخا لوجودنا

ولا تعبيراً عن ارادة هذا الوجود ، بل محض تمزق من التناقضات ، وتضاءلت المكابدة والمعاناة والتجربة عندنا ، فانتقل الادب الى التجربة ، وانقطع حبل السرة ما بينه وبين رحم الارض ورحم التاريخ لا ليولد شيء جديد ، ولكن ليولد كل ما هو ميت او مرشح للموت والانذار . لقد اختنق وانذر ذلك الصوت الذي ورنسناه نحن سلالة المنشدين ، ومثقفنا قبل غيره قد فقد الاحساس بالجوع العظيم، وتحلل الكون في ناظره فعاد بلا معنى ، وبلا مغزى ، وبلا هدف . لقد اصابتنا الخرس الفاجع ، والخرس الفاجع انكى عقيبى من كل ما اصابتنا في قفصتنا الكبرى : تكون او لا تكون . لقد فقدنا خصائص الذات ، وتحول كل شيء في الحركة الكونية الى قدر اعمى امامنا ، فقدنا الاحساس بالابعاد ، زمانا ومكانا ، ارضا وسماء .

مند اجيال ، وخصيصةتنا الكبرى التي نتوه بها على العالم ، اننا نتحدى الحياة والكون بالنشيد ، فحضارتنا حضارة الابجدية ، حضارة الحرف . ولكن أبجديتنا قد تنافرت واثتمتها مناهات الرمل ، وحرفنا استحال الى صمت . كل ذلك على يد مثقفنا ، اديبا ومفكرا . ان مثقفنا لم يمارس الالتزام ازاء الواقع والتاريخ ، بل تحدث عن الالتزام كثيرا ، لانه سمع ان اناسا آخرين في عالم آخر قد تحدثوا عن الالتزام ، فبقي الالتزام ، بالنسبة اليه شيئا مضافا من الخارج ، ولم يكن قيمة انسانية ، بل كان فنا من فنون الاتكاء على مفاهي الارصفة ، فظل السوق ، في وجدان المثقف العربي سوقا عاديا جاهلا لا ينطوي على اي معنى انساني سقراطي .

الالتزام الحق هو ان نعايق العالم ، وان نحمل عنه جميع همومه واكداره ، وان نستشعر المسؤولية عن هاتيك الهموم والاكدار ، من اجل أن يرتفع معنى التاريخ في وجداننا ، وان نرضى بتبعات ذلك كله دون أن نفقد حركة الذات المستقلة . ان نتحرك ضمن اطار العالم بحرية وارادة كاملتين ، دون أن نخرج على العالم فننكر اصلتنا فيه . الالتزام عهد مع العالم ووفاء له وليس خروجا عليه !

ولكن المثقف العربي ، كان دون مستوى الصلة بالعالم ، اذ كان محض اصداء وتهريج . انه لم يكن معاصرا للعالم ولا مشاركا في كبرى قضاياها ، بل كان مجرد رقيب من وراء تخومه يمصغ الحروف الكبيرة المهشمة ببلاهة ، وينظر الى العالم دون أن يقذف بنفسه في جريء مقامراته .

والمثقف العربي ، مفكرا ، لم يكن يحس سوى الدعوة والترويب للآخرين ، دون أن يعي الاسباب والنتائج والاهداف ، بل دون أن يدرك الضرورات للدعوة والتهريج انه كائن لا يحسن تفسير آتفه موافقه . ان الحضارات الكبيرة تنتج عنها افكار كبيرة ، ولكن حركتنا الثقافية المعاصرة لم تستطع ان تنتج فكرة واحدة ، بل واكثر من ذلك انها عجزت عن ان تكون محض مرآة تعكس الآخرين .

ان الآداب والفنون عمليات وصف هادئة ، والفكر عملية تفسير هادف ، ولا يتم ذلك الا من خلال مبادرات شهمة صادقة ، والمثقف العربي بخصائصه الواهنة كان اعجز من ان يقوم بأية مبادرة من مبادرات الذات ... لقد كان محض تشويه .

لقد كان محض تكرار مشوه !

محيي الدين اسماعيل